الأمثال والحكم

مفهوم المثل: عرّف السّيوطي المثل، مقتبسا تعريفه من كلام المرزوقي في "شرح الفصيح"، فقال: **"المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة في ذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنقل عمّا وردت فيه إلى كل ما يصحّ قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمّا يوجبه الظّاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تُضرب، وإن جُهلت أسبابها التي خرجت عليها"**)[1].

(هذا الكلام يعني أنّ للأمثال **صيغا جوامد، لا تتبدل بتبدل المخاطبين بها**، وتراكيبَ لا يعروها ما يعرو غيرها من مراعاة مقتضى الأحوال، حتى قواعد النحو تظلّ عاجزة عن السّيطرة عليها، فأنت تقول: "أعط القوس باريها"، بسكون الياء وحقّها ظهور الفتحة، وتقول: "الصّيف ضيعت اللّبنَ"، بتاء مكسورة في مخاطبة المذكر والمؤنث والمثنى والجمع)[2].

(ذهب المستشرق "زهايم" إلى أنّ أصل كلمة "مثل" ساميّ، وأنّ العربية كأخواتها الساميات استخدمت جذره اللغوي وفروعه المشتقة للدلالة على معان متقاربة. ورأى ان العرب والساميين قد ضربوا الأمثال، قبل أن يسمّوها بهذا الاسم. ووجد في استخدامه دليلا على **ميل الشعوب السامية إلى التجريد، وإلى الرغبة في عقد المقارنات التصويرية بين الأوضاع المتقاربة.**

وللبلاغيين في المثل والتمثيل مفهوم آخر، إذ يرون أنّ المثل شكل من أشكال الصور البيانية، فهو إما تشبيه وإما استعارة، لأنّ ضربه يعني تشبيه حال بحال)[3].

أهمية الأمثال العربية: (لما تلقاها علماء اللغة من ألسن الرواة والحفظة، وجدوا فيها ثروة لغوية ضخمة، فأكبوا عليها يجمعونها وينسّقونها، ويشرحونها، ويحاولون في هذا الشرح أن يشفعوا كلّ مثل بما يناسبه من توضيح، أو بما يكمّله من أخبار وقصص. ثم انتقلت العناية بالأمثال العربية من المؤلفين القدماء إلى الباحثين الأوروبيين المعنيين بدراسة الأدب العربي والتراث العربي، وقد ظهرت هذه العناية في فترة مبكرة، إذ بدا الاهتمام بها وبنشرها منذ عام 1591م، وقوي مع قوة حركة الاستشراق)[4].

---

[1] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 549.

[2] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 549.

[3] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 549.

[4] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 550.

وأما أهمية الأمثال فتبدو في إجماع الأدباء والنقاد، قدمائهم والمحدثين على الإعجاب بها للأمور التالية:

1 ـ بلاغتها: فقد رأى عبد الله بن المقفع أنها "آنق للسمع" من أضرُب الكلام الأخرى، وقال النّظّام إنها "نهاية البلاغة"، ورأى الفارابي أنها "من أبلغ الحكمة"...)[5].

2 ـ سيرورتها: شاعت الأمثال فيما يكتب الناس ويتحدّثون، واتّخذ بعضها حججا وبراهين. قال ابن عبد ربّه إنها "أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة، لم يَسِرْ شيء مسيرَها، ولا عمّ عمومَها، حتى قيل أسيرُ من مَثَل".

3 ـ تعبيرها عن الأمة العربية: لما كانت الأمثال خلاصات تجارب، فقد حفلت بكثير من ثقافة العرب وقيمهم وخلقهم، وواكبت تطورهم. قال الدكتور رمضان عبد التواب: "إنها مرآة صافية لحياة الشعوب تنعكس عليها عادات تلك الشعوب وتقاليدها وعقائدها، وسلوك أفرادها ومجتمعاتها، وهي ميزان دقيق لتلك الشعوب في رقيّها وانحطاطها وبؤسها ونعيمها وآدابها ولغاتها". وقال زلهايم: إنها "الأنغام اللغوية الصغيرة للشعوب، وينعكس فيها الشعور والتفكير وعادات الأفراد وتقاليدهم".

4 ـ صلتها بالقصة: يبالغ بعض المعجبين بالأمثال، فيذهب إلى أنها تعدّ جذورا للقصة العربية في العصر الجاهلي لارتباط أكثرها بأحداث وشخوص وتجارب)[6].

أنواع الأمثال: (لم نجد في كتب الأقدمين تقسيما واضحا يجعل الأمثال أنواعا بحسب الأفكار والصور. ووجدنا من المصنفين من يميز الأمثال القديمة من أمثال المولّدين، والأمثال المبدوءة بلفظ على وزن (أفعل) من سواها، أما **المستشرق "زلهايم" فقد وجد أربعة أنواع في أمثال العرب**، وهي[7]:

1 ـ المثل التصويري: ومعناه عنده التعبير غير المباشر عن تجربة بلفظ موجز، وتشبيٍ حسن كقول العرب: "نعم كلب في بؤس أهله"، وقولهم: "لا يجتمع السيفان في غمد"، وقولهم: "قد بيّن الصبح لذي عينين"، ومن الواضح أن المثل الأول يجعل اللئيم النّهّاز كلبا، والثاني يشبّه البطلين بكلبين، والثالث يقرن الحق بالصبح.

2 ـ التعبير المثلي: وهذا النوع "لا يعرض أخبارا معينة عن طريق حالة بعينها، ولكنه يبرز أحوال الحياة المتكرّرة، والعلاقات الإنسانية في صورة يمكن أن تكون جزءا من جملة"، ومن أمثلته: "سكت ألفا ونطق خُلفا"... وهذا النوع يثري التعبير ويوضحه، ومن هذا النوع ما جاء في صدره لفظ على وزن "أفعل"، مثل: "أظلمُ

---

[5] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 553.

[6] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 553.

[7] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 551.

من حيّة"، وأبصرُ من غراب"... ولا يخلو هذا النوع من التشبيه أو المبالغة فيه كتشبيه البصير بالغراب، والمتشابهين بأسنان الحمار، في قولهم: "سواسية كأسنان الحمار".

3 ـ المثل الحكمي: وهو تعبير موجز شديد الإيجاز، ويصوغ الحكمة بلفظ مجرّد، ويتضمن قيمة من القيم، أو يدعو إلى مبدأ من المبادئ كقول العرب: "السرّ أمانة"... وكقولهم: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما".

4 ـ العبارة التقليدية المتداولة: والعرب تكثر من استعمال هذا النوع في الدعاء والخطاب والتحية، ويتضمّن عبارات يصقلها الاستعمال، وتتلقّفها الألسنة)[8].

المثل صورة دقيقة للنثر: (إذا كان القصص الذي أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلي، بحكم تأخره في التدوين، فإن **الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة**، إذ أنّ من شأنها أنْ لا تُغيّر، وأنْ تظل طويلا بصورتها الأصلية، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة. وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة، إذ ألّف فيها صحار العبدي أحد النسّابين في أيام معاوية بن أبي سفيان (41هـ - 60هـ) كتابا، كما ألف فيها عُبيد بن شَرِيّة معاصرُه كتابا آخرَ... وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعا يهتمون بها ويؤلفون فيها، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب "أمثال العرب" للمفضّل الضّبّي)[9].

المثل وقصته: (ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التي تسمى مثلا، ولا يكتفون بذلك، بل يقفون غالبا لسرد القصة أو الأسطورة التي تمخّض عنها المثل، وقد تتمخّض عن أمثال أخرى فتُروى في تضاعيفها. وموقفنا من هذه القصص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلي بعامة، **فنحن لا نتّخذ منها صورة للنثر الجاهلي، وإنْ اختلجت بروحه وطبيعته وحيويته، لنفس السبب الذ ذكرناه، وهو تأخر تدوينها**)[10].

أهمية كتاب المفضّل: (ربما كان **كتاب "الأمثال" للمفضل بن محمد الضبي** (ت نحو 170هـ) **أقدم كتاب بلغنا** مما ألّفه الأقدمون في الأمثال، وفيه مجموعة من الحكايات والنتف التاريخية والخرافات التي تنتهي بعبارة يقولها بطل القصة أو من يعارضه، فتذهب مثلا)[11].

---

[8] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 552.

[9] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص: 404.

[10] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص: 409.

[11] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 550.

أهم الكتب القديمة: في القرن الثالث (يؤلّف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتابا يشرحه من بعده أبو عبيد البكري باسم **"فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلاّم"**، وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى، حتى يؤلف أبو هلال العسكري كتابه **"جمهرة الأمثال"** ويخلفه الميداني، فيؤلّف كتابه **"مجمع الأمثال"**، وهو يقول في مقدّمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابا)[12].

بين الجاهلي والإسلامي: (لم يحاول من جاؤوا من بعد أن يفردوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية، إذ درج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الأولى على نحو ما تُرَتِّبُ المعاجمُ ألفاظَها، فهم يرتّبونها أو يؤلّفونها في تسعة وعشرين بابا بعدد أبواب الحروف الهجائية، وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليّها من إسلاميّها في كثير من الأحيان، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليّتها وقِدمها، وهي تتخذ عندهم طريقين:

ـ الطريق الأول: أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسّره، أو أنْ يُساق هو في أثناء قصة... أو أساطير جاهلية، كالذي زعموا أنّ النعمان بن امرئ القيس اللخمي ابتنى قصرا له يسمى الخورنق، بناه له روميّ يسمّى سنمّار، فلما أتمّه قال له سنمّار: إني أعرف موضع آجرّة لو زالت لزال القصر كله، فقال له النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ فقال: لا، فقال: لا جرم، لَأَدَعَنَّهَا وما يعرفها أحد، ثم أمر فرُميَ به من أعلى القصر إلى أسفله فتقطّع، فضرب به الجاهليون المثل فقلوا: "جزاء سنمار".

ـ وأما الطريق الثاني: فهو أنْ ينسبوا المثل إلى جاهليين، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة، ومنهم من يُغرق في القدم مثل لقمان عاد، تلك القبيلة اليمنية التي كانت تنزل في الأحقاف، والتي بادت ولم تبق منها باقية في الجاهلية، وقد ظلّ اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم، وظلّوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم. يقول الجاحظ: "من القدماء ممّن كان يُذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء لقمان عاد". وينصّ على أنّه غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم، كما ينصّ على ذلك المفسرون. ولقدم لقمان حفّت الأسطورة به وبحياته وكل ما يتّصل بصلاته مع الناس والنساء. فقال الأخباريون إنه كان عملاقا كبير الرأس قويّا قوّة خارقة، حكيما حكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعة نسور، وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة وكان لُبَدُ آخرَها، وبه ضربوا المثل في طول العمر فقالوا "طال الأبد على لبد")[13].

---

[12] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص: 404.

[13] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص: 405، 406.

بنيته: (لا بد أن نلاحظ أيضا أن **الأمثال لا تتغير**، فتقول: "الصيف ضيعت اللبن"، بكسر التاء إذا خاطبتَ الواحد والواحدة والاثنين والاثنتين والجماعة، ومن ثَمَّ كانوا يستجيزون في المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع، ففي أمثالهم: "أعطِ القوس باريها" بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها...)[14].

(وكثيرا ما نلاحظ **في بعض عباراتها احتفالا بتوازن الكلمات توازنا ينتهي بها إلى السّجع**، كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتماما بالتصوير، ومن أجل ذلك يقول النّظّام إنها **"نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية"**)[15].

(فإنك **تحسّ جمال الصياغة**، وأنّ صاحب المثل قد يعمد إلى **ضرب من التنغيم الموسيقي للفظه**، فإذا هو يسجع فيه، أو إذا هو ينظمه شطرا من البيت. وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة، ليجسّم المعنى ويزيده حدّة وقوّة. والحق أنّ كل شيء يؤكّد أنّ **العرب في الجاهليّة عُنُوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه**، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدّثوا أو خطبوا...)[16].

خصائص الأمثال: (تتميز الأمثال **بخصائص** اقتضتها طبيعة اللغة العربية أولا، والمواقف التي اكتنفت صياغتها ثانيا، وأهم هذه الخصائص:

1 ـ **الإيجاز:** إذا كان الإيجاز ظاهرة اميز اللغة العربية، فهو في الأمثال شديد التركيز والتكثيف، ولذلك شاع في الأمثال الحذف، واضطر النحاة إلى التأويل والتقدير في إعرابها.

2 ـ **التصوير:** في أكثر الأمثال العربية استعارات وكنايات وتشبيهات بلغت الغاية في الجمال والرقة، تقول العرب: "إيّاك أن يضرب لسانك عنقَك"، وقولهم "لو ذات سوار لطمتني"، وقولهم "إنه لأَجْبَنُ من صافر"/ والصافر الطائر الصغير الذي يصفّر)[17].

3 ـ **الموسيقا:** زيّن العرب أمثالهم بتوقيعات صوتية جميلة تيسّر تداولها، وتفتح لها القلوب والأسماع، كالسجع والتوازن والإتباع. وربما توافر لبعضها الوزن الشعري العروضي إما لورودها في قصائد ومقطّعات، وإما لأن الحس الرهيف الذي شارك في صوغها أطلقها موزونة...

---

[14] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص: 408.

[15] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص: 409.

[16] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ،العصر الجاهلي، ص: 409.

[17] غازي طليمات: تاريخ الأدب العربي، ص: 552.

نماذج منها :

تجوع الحرّة ولا تأكل بثديّيها[18]، مقتل الرّجل بين فكّيه[19]، إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، من استرعى الذئبَ ظلم، في الجريرة تشترك العشيرة[20]، وقد يأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ[21]، استنوق الجمل[22]، كالمستجير من الرمضاء بالنار[23]، تحت الرّغوة اللبن الصّريح[24].

و من حكم **أكثم بن صيفي**: ربّ عجلة تهب ريثا. ادّرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل. المرء يعجز لا محالة. لا جماعة لمن اختلف. شرّ النصرة التّعدّي. أسوأ الآداب سرعة العقاب. ربّ قول أنفذ من صول. الحرّ حرّ وإنْ مسّه الضّرّ. العبد عبد وإنْ ساعده الجدّ. إذا فزع الفؤاد ذهب الرّقاد.

---

[18] يُضرب في صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة.

[19] بين فكّيه: أي لسانه وما يتكلم به.

[20] الجريرة: الجناية.

[21] شطر بيت لطرفة.

[22] استنوق الجمل: أصبح ناقة، يضرب مثلا لمن يظهر أنّ عنده رأيا ثم يتضح عجزه.

[23] الرمضاء: الأرض شديدة الحرارة.

[24] الصريح: الخالص.